



فائض المعنى في شعر حسان بن ثابت الأنصاري

أ.إمراجع فرج عبد العزيز إبيعص

محاضر مساعد بقسم اللغة العربية - كلية الآداب/ جامعة درنة

emrajaabias@gmail.com



<https://www.doi.org/10.58987/dujhss.v3i5.24>

تاريخ الاستلام: 2024/01/07 ؛ تاريخ القبول: 2025/02/19 ؛ تاريخ النشر: 2025/03/02

المستخلص:

- هذه الدراسة منهجية تسلط الضوء على فائض المعنى في شعر حسان بن ثابت الأنصاري، واقتضت طبيعة الدراسة التعريف بفائض المعنى، والخطاب، والشاعر وشعره، وتناول الباحث: عناصر الخطاب (السياق، والمخاطب، والمتكلم) ومراعاة ذلك، وأثره في إيجاد المعنى في شعر حسان بن ثابت، واتبع الباحث في دراسته المنهج الاستقرائي التحليلي، فقام الباحث باستقراء شعر حسان بن ثابت، والوقوف على المواضع المناسبة للبحث، ثم تحليلها للوصول إلى المعنى الفائض، والتوصل إلى نتائج، منها:
- النصوص الشعرية تحوي أحسن الشواهد - بعد القرآن الكريم والحديث النبوي - لبيان مطابقة الكلام لمقتضى الحال.
 - شعر حسان بن ثابت تنوعت أغراضه، وتعددت مواضعه، وجاء، بجكم ومواعظ، وخاصة فيما يتعلق بمدح النبي - صلى الله عليه وسلم - والدفاع عنه.
 - يتنوع الغرض الشعري بتنوع حال المخاطب.
 - بعض كلمات شعر حسان بن ثابت نجدها في القرآن الكريم، بنفس اللفظ والمعنى، وهذا يؤكد أن لغة القرآن تخدم لغة الشعر، وخاصة شعر صدر الإسلام.
 - المواضع التي جاءت مراعية حال الخطاب في شعر حسان كثيرة جدا تكاد لا تتحصر.
 - أهمية مراعاة عناصر الخطاب في إيجاد المعنى العميق.
- الكلمات المفتاحية: فائض المعنى، حسان بن ثابت، شعر صدر الإسلام، السياق، المتكلم، المخاطب.



Abstract

This study is systematic and sheds light on the excess of meaning in the poetry of Hassan bin Thabit Al-Ansari. The nature of the study required introducing the excess of meaning, the discourse, the poet and his poetry. The researcher dealt with the elements of discourse (the context, the addressee, and the speaker), taking that into account, and its impact on finding meaning in the poetry of Hassan bin Thabit. He followed the inductive and analytical approach, so he extrapolated the poetry of Hassan bin Thabit, identified appropriate places for research, and then analyzed them to reach results, including: Poetic texts contain the best evidence to show that the words match the circumstances' Hassan's poetry varied in purpose and context, and included wisdom and sermons, especially with regard to praising the Prophet - may God bless him and grant him peace - and defending him. The poetic purpose varied according to the situation of the addressee We find some of the words of Hassan's poetry in the Holy Qur'an, with the same pronunciation and meaning, and this confirms that the language of the Qur'an serves the language of poetry, and the places that took into account the state of discourse in Hassan's poetry are very numerous and almost infinite, highlighting the importance of taking into account the elements of discourse in finding the deep meaning.

Keywords: Surplus of Meaning, Hassan Bin Thabit, Early Islamic Poetry, Context, Speaker, Addressee.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

شَرَفَ اللهُ اللغة العربية بأن جعلها لغة القرآن الكريم، وأخفى في كلماتها سرَّ الإعجاز، ومنح تراكيبها حسن السبك والإحكام، لتبقى - ما بقي القرآن - مورداً عذبا، ومعيناً لا ينضب للباحثين والدارسين فمن يبحث في كلماتها، أو يدرس خصائص تراكيبها، أو يكشف عن ظواهرها ومميزاتها يجدها - أبداً - زاخرة بالذُرر والنفائس، وملينة بالأسرار والعجائب.

بدأت لغتنا العربية شعرية، وساعد ذلك على كثرة مظاهر قضاياها، وتعدد أنماطها وصورها؛ وذلك لأنَّ الشاعر مقيد بالوزن والقافية، ويدفعه هذا التقيد -في حالات كثيرة- إلى الحذف أو الذكر، أو التوكيد، وعدمه، أو التقديم، أو التأخير في معظم العناصر من بناء الجملة.

إنَّ تراثنا لجديرٍ بدراسات لغوية عديدة تتجلى من خلالها قيمته اللغوية، ويقدم إلى النَّاس مفسراً موصَّحاً.



والدراسة اللغوية تصبح أكثر إمتاعاً إذا كانت في مجال الشعر، فالشعر مجال واسع للعواطف والأحاسيس المختلفة، فضلاً عن كونه مجالاً للأفكار والرؤى التي تتنوع بتنوعها التراكمات اللغوية لدى الشاعر، مما يثري الدرس اللغوي، ومن هنا تأتي هذه الدراسة النحوية البلاغة الدلالية لقضية اللفظ والمعنى في شعر حسان بن ثابت الأنصاري.

إنّ شعر حسان بن ثابت يُعدُّ قمةً في التعبير اللغوي على شتى مستوياته من نحو وصرف وبلاغة ودلالة، فهو لذلك حقيقٌ ألا يوقّف به عند حدود الدراسة الأدبية والنقدية، بل يجب أن يُتناول بدراسات لغوية عديدة، من شأنها أن تُبرز سماته المميّزة، وتوفيه حقه من البحث اللغوي الذي يليق به، وتتيح لقارئه الفرصة لأن يفهمه فهماً تاماً غير منقوص.

موضوع الدراسة:

تتناول هذه الدراسة قضية اللفظ في شعر حسان بن ثابت الأنصاري، وعلاقة ذلك بالمعنى (فائض المعنى)؛ وذلك من خلال مراعاة الشاعر لحال الخطاب.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الآتي:

لا شك أنّ لكل ألفاظ معانٍ، والمعاني هي التتابع الظاهري للألفاظ، والمفهوم السطحي لها، دون الدخول في توضيح أو تفسير أو تأويل، وهذا يسمى المعنى السطحي. وهناك المعنى العميق، فكيف نصل إليه؟ وهل يحتاج إلى مراعاة عناصر السياق؟ هذا سنجيب عليه خلال هذا البحث.

أهمية الموضوع :

موضوع (فائض المعنى في شعر حسان بن ثابت الأنصاري) له قدر من الأهمية يكمن في الآتي:

- 1- تعلق الموضوع بالشعر، لتوسيع المعرفة، والتعرف على الثقافات والتقاليد المختلفة.
- 2- تناول الدراسة لبيان الترابط بين اللفظ والمعنى من خلال الدرس التطبيقي في شعر حسان بن ثابت الأنصاري.
- 3- تناول الدراسة لقضية من أهم القضايا الأدبية والنحوية "اللفظ" وما لها من أثر في المعنى.



4- إنّه موضوع عميق الأثر في مجالات البحث النحوي والبلاغي، وكل من اتصل بهما بسبب -من قريب أو بعيد- يلمس اعتماد النحاة والبلاغيين الذي لا حد له على (تقدير المعنى العميق) في تخريج ما يتناولونه من نصوص.

5- إنّه موضوع يصور البحث البلاغي التقليدي تصويراً دقيقاً إلى أبعد غايات الدقة في المادة والمنهج معاً.

6- بيان الحكمة في الدعوة إلى الله بمراعاة حال أحوال المخاطبين.

7- لعله يسهم في تقديم شواهد واضحة حول هذا الموضوع.

8- يتوقف فهم النصوص الشعرية على مراعاة عناصر الخطاب (السياق، والمتكلم، والمخاطب)، لفهم المعنى العميق.

حدود الدراسة:

دراسة حال الخطاب في شعر صدر الإسلام (شعر حسان بن ثابت) لمعرفة معنى أعمق.

الدراسات السابقة:

الدراسات السابقة المتعلقة بشعر حسان بن ثابت الأنصاري كثيرة جداً، نذكر منها:

1- التحولات الفكرية في شعر حسان بن ثابت، الدكتور أحمد عبدالرحمن الذنيبات، والدكتور خالد فرحان البداينة، مجلة جامعة دمشق - العدد: 2، 2013.

يعتمد هذا البحث إلى دراسة اللفظ وعلاقته بالمعنى، وذلك من خلال تأثر الشاعر بالإسلام وانعكاس ذلك مع شعره، وهذا يتفق مع بحثنا، من ناحيتين: اللفظ والمعنى، وحال المتكلم، ويختلف عن بحثنا في أنه دراسة للظروف الفكرية (الثقافية، والدينية، والاجتماعية، لدى المتكلم فقط) لتشكيل النص، وإيجاد المعنى، بينما بحثنا، دراسة لمراعاة حال الخطاب (المتكلم، والمخاطب، والسياق)، وأثر ذلك في تشكيل النص، وإيجاد المعنى

2- بنية النص الشعري عند حسان بن ثابت في الجاهلية والإسلام دراسة وموازنة، د. عبدالحاميد محمد إمام عامر، مجلة أبحاث، كلية الآداب-جامعة سرت، عدد: 14، 2019.



تتفق هذه الدراسة مع دراستنا في أنها دراسة للبنية السطحية للنص في شعر حسان بن ثابت، وتختلف معها في أنها موازنة بين قصيدتين لحسان، الأولى: في العصر الجاهلي، والثانية: في العصر الإسلامي، من ناحية ضعف النص، بينما الغرض من دراستنا الوقوف على الموضوع في شعر حسان (الإسلامي) للوصول إلى البنية العميقة، دون الموازنة بين العصرين.

3- أساليب (إذا) في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه (دراسة نحوية تطبيقية)، خالد آدم موسى، مجلة مركز الخدمة، مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب، جامعة المنوفية.
هذه الدراسة، دراسة (نحوية) أي: تركيبية فقط دون العلاقة بالمعنى، بينما دراستنا دراسة (بلاغية نحوية) أي: تركيبية وعلاقة ذلك بالمعنى.

4- صورة المهجو في شعر حسان بن ثابت، إعداد الطالب: سلطان عويض العطوي، إشراف الدكتور: خليل الرفوع، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2013.

هدفت هذه الدراسة إلى بيان فن من فنون الشعر العربي، ألا وهو الهجاء في العصرين (الجاهلي، والإسلامي)، وهدفت دراستنا إلى دراسة كل أغراض الشاعر مدح وهجاء ورتاء للوقوف على أحوال الخطاب، للوصول إلى المعنى العميق للنص.

5- الخطاب الإعلامي في شعر الدعوة الإسلامية (حسان بن ثابت - كعب بن مالك، عبدالله بن رواحة أنموذجا)، سعدية حسين البرغثي، مجلة كلية التربية العلمية، عدد: 8، 2020.
البحثان يتفقان في شيء واحد وهو: دراسة الشعر في صدر الإسلام، وكيف تأثر الشاعر بالإسلام في شعره.

الهدف من الدراسة :

تسعى الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف الرئيسية وهي:

- 1- التعرف على الشاعر وفن شعره، لمعرفة ما إذا كان من أحسن الشواهد، بعد القرآن الكريم والسنة.
- 2- التعرف لقضية اللفظ والمعنى، لنرى مدى الترابط بينهما.
- 3- الوقوف على الأبيات التي راعى فيها الشاعر أحوال الخطاب، لمعرفة مدى مساعدة ذلك على إيجاد المعنى العميق.



4- البحث في البنية العميقة للتراث الأدبي الشعري، للتعرف أكثر على تأثر الشاعر بالظروف المحيطة به.

5- فتح المجال لمزيد من الدراسات في هذا المجال.

6- إثراء المكتبة العربية ببحث يدرس الشعر الإسلامي.

منهجية البحث :

نظراً لخصوصية الموضوع الذي نتناوله في تلك الدراسة والتي تمت بصلة مباشرة لعلوم النحو والبلاغة والدلالة، فقد وقفت أمام مناهج البحث المختلفة لانتقاء المنهج المناسب لهذا الموضوع المهم، وقد وجدت هذا التناسب في منهج سوف أسير -بإذن الله- عليه في تلك الدراسة وهو: المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم بتتبع الموضوع في المصادر والمراجع، وتحليلها، للوصول إلى النتائج، وذلك من خلال:

- 1- تتبع الأبيات الشعرية في شعر حسان بن ثابت المتعلقة بالموضوع.
- 2- توثيق كل بيت، وذلك بذكر رقم الصفحة.
- 3- شرح المفردات الصعبة، وكتابة اسم البحر لكل بيت.
- 4- تحليل الأبيات موثقة بالاستشهاد بالنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية.
- 5- توثيق المصادر والمراجع بكتابة اسم عائلة المؤلف، وسنة النشر، ثم رقم الصفحة.

تقسيم البحث:

ينقسم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

- المقدمة: تتناول التعريف بالموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، والهدف من الدراسة، ومنهجية البحث، والدراسات السابقة.
- التمهيد: يتناول التعريف بفائض المعنى، وبالشاعر وشعره، ومفهوم الخطاب.
- المبحث الأول: يبين حال السياق، وعلاقة بالمعنى في شعر حسان بن ثابت.
- المبحث الثاني: فيتعرض للأبيات التي راعى فيها الشاعر حال المخاطب.
- المبحث الثالث: أثر حال المتكلم في المعنى.
- الخاتمة: تحتوي على ما توصل إليه البحث من نتائج.



تمهيد

مفهوم فائض المعنى:

فائض المعنى في اللغة: (الفائض): يقال: فائض عن الحاجة، أي: ما يزيد عن الحاجة، ويقال: فائض القيمة: ما يزيد في المجال التجاري من ربح. (الإفريقي، 1414هـ: 632)

والحوض فائض أي ممتلئ، وأفاض القوم في الحديث انتشروا واندفعوا وخاضوا وأكثروا وفي التنزيل "إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ..." [يونس: 61] أي: تَدْفِعُونَ فِيهِ وَتَنْبَسِطُونَ فِي ذِكْرِهِ وفي التنزيل أيضاً: "لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ..." [النور: 14]، وأفاض الناس من عرفاتٍ إلى منى اندفعوا بكثرة إلى منى بالتلبية. (الحموي، 734هـ: 251)

(المعنى): يقول الرازي (1995): مضمون، فحوى، دلالة، ما يدل عليه اللفظ، والمعاني: ما للإنسان من الصفات المحمودة، وفلان حين المعاني.

فائض المعنى في الاصطلاح (الجباعي، 2018م: 1-2): من خلال قراءتي كتب البلاغة والنحو استنتجت عدة تعريفات لفائض المعنى:

- هو المعنى الأصلي الذي يتجاوز الجزء المستخدم (اللفظ).
- هو المعنى الموجود في البنية العميقة لا يخرج منها إلا بتأويل.
- هو فائدة المعنى التي تعود إلى مؤول النص.
- هو ما يزيد في النص من ربح، وهذا الربح هو المعنى الخارج عن الاستعمال التركيبي المفهوم لدلالة ما.

وبعد هذه التعريفات يأتي السؤال، كيف يخرج المعنى المقصود من البنية العميقة؟

هناك فرضية أساسية تقول: "لا يكون تأويل إلا لفائض في المعنى، ولا فائض في المعنى إلا بتأويل، أي: لا يخرج المعنى المقصود إلا بتأويل، والتأويل يختلف باختلاف المؤول، كل على حسب قدراته وثقافته.

تستند هذه الفرضية على وجود فاصل، يمكن أن يكون هوة بين التفكير والتعبير، وبين النص المكتوب والنص المقروء، وبين المتكلم والمخاطب، وبين الكاتب والقارئ سواء كان الكاتب معلوماً أو مجهولاً؛ لأنَّ الكلام يُظهر ويُخفي، ويُثبت ويُغيي، فما يُخفيه الكلام لا المتكلم؛ لأننا لا نتكلم على إخفاء قصدي، وكذلك ما يُغييه،



هو المجال الرئيس للتأويل الذي يحاول أن يجسّر الهوة بين الظاهر والباطن، وبين القول ومضمراته، ويحيل على (خصوصية المعرفة) فهو محاولة تجسير، تحتاج

إلى جسّارة سواء في مواجهة المتكلم أو في مواجهة النص، وهذا غير التفسير، وسنذكره سابقاً -إن شاء الله- في الفرق بين التأويل والتفسير. (الجباعي، 2018م: 2)

إنّ فائض المعنى ليس ثابتاً، بل هو متغير على الدوام، ومحكوم بالثروة اللغوية، وأنماط التفكير، ومدى النشاط الذهني والعقلي، ومدى اتساع الحقل التداولي أو ضيقه، في حين يمكن أن يكون المعنى (الأصلي) ثابتاً، وهذا ما بينه علم أصول الكلمات وتاريخها وعوامل تطورها، فهو شبيه بفائض القيمة في الاقتصاد السياسي من عدة وجوه، أولها: أنّ المنتج هو الرابطة أو الصلة الاجتماعية الإنسانية (المادية) بين المنتج والمنتج له، والثاني: أنّ القيمة (قيمة المنتج) لا تظهر إلا في التبادل والتداول، والثالث: هو اختلاف أساليب المنتج لهم في استعمال المنتج مهما كان المنتج، والرابع: وهو قابلية المنتج للنقد والتقييم، إذ يراهن المنتجون على التقييم الإيجابي لمنتجاتهم، ولعل الوجه الأهم من وجوه التشابه وينبغي اعتباره في المقام الأول، هو أنّ إنتاج الكلام وإعادة إنتاجه هما شكلان من أشكال الإنتاج، (إعادة الإنتاج أو ما يسمى بالتدوير)، فرب تأويل يشبه تدوير المنتجات المادية المستهلكة.

ونفهم من هذه المقدمة، أنّ لا تأويل إلا لفائض في المعنى، والعكس، أي: لا فائض في المعنى إلا بتأويل، وهذا لا يتحقق إلا بمقتضى الحال (هيدغر، 2012م: 20).

بمعنى: أن المتكلم قد يحتوي كلامه على معنى عميق، إذا وُجّهَ -مثلاً- لشخص عالم، وقد لا يحتوي إذا وُجّهَ -مثلاً- لشخص جاهل.

فحال المخاطب قد يستدعي من المتكلم كلاماً به معانٍ في البنية السطحية فقط، وربما يستدعي من المتكلم كلاماً به معانٍ تحتاج لتأويل، كذلك الأمر ف حال المتكلم.

مفهوم الخطاب

الخطاب في اللغة: يقول الرازي (1995م): من الفعل الثلاثي خطب، أي: تكلم وتحدث للملأ، أي: لمجموعة من الناس عن أمر ما، أو ألقى كلاماً.

أما تعريفه اصطلاحاً: فهناك العديد من التعريفات المتعارف عليها للدلالة على الخطاب، ومنها: الخطاب مجموعة متناسقة من الجمل، أو النصوص، والأقوال، أو أن الخطاب منهج في البحث في المواد



المشكلة من عناصر متميزة ومترابطة سواء أكانت لغة أم شيئاً شبيهاً باللغة، أو أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع وفي نية الراوي التأثير على المتلقي، أو نص محكوم بوحدة كلية واضحة يتألف من صيغ تعبيرية متوالية تصدر عن متحدث فرد يبلغ رسالة ما. (الأحمد، 2009)

مفهوم الخطاب الشعري:

الخطاب الشعري حمال دلالات، وهو ما يفصح عنه النص الشعري قديمه وحديثه، عند تفكيكه إلى مكوناته الأصلية: البنى التركيبية اللغوية ذات الاتصال الوثيق بالبنى النحوية من جهة، وجموع البنى البلاغية في تعالقها بالبنى السالفة من جهة أخرى، ما يؤسس ملمحه الأسلوبية الذي يميزه عن سائر النصوص من جنسه، ومن ثمة عن سائر أنواع الخطابات الأخرى. (علمي، 2014: 2-5)

ومن أشهر تعريفاته: قول موزون مقفى، يدل على معنى، وقد يدل على معنى آخر عميق يحتاج إلى تأمل (حمدان، 1978: 56).

وبعبارة أخرى: هو كلام بائن عن المنثور. (العلوي، 1900م: 3)

التعريف بحسان بن ثابت (ت54هـ) وشعره (الأنصاري، 2008: 7-8):

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري اليثربي الصحابي أبو الوليد - رضي الله عنه - ينتهي نسبه إلى قحطان، أمه الفريعة بنت خالد خزرجية، سكن المدن والقرى، ومدح الملوك والأمراء، ثم لما ظهر الإسلام وأسلمت الأوس والخزرج أسلم حسان، شاعر النبي - صلى الله عليه وسلم - وله ديوان شعر، كان يحارب بلسانه أكثر من سيفه، ودعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله (...اهجهم، وروح القدس معك)

حسان بن ثابت شاعر مخضرم عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، وهو بذلك أحد شعراء المعمرين، مدح الغساسنة بعدة قصائد، وهو أحد فحول الجاهلية والإسلام، اختاره ابن سلام في طبقاته، ليكون من شعراء المدينة.

دافع - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن المسلمين، وهجا قريشاً وشعراءها، وكان شاعر فخر وهو من الهجائين، يبدع في الفخر والهجاء والنقائص والمدح، وامتاز شعره - رضي الله عنه - باللفظ الفخم والأسلوب القوي، مع صدق اللهجة والالتزام.



مدخل

قبل الدخول في مباحث البحث لا بد من معرفة لفظ عُرف في علم البلاغة باسم (مقتضى الحال) وقبل التعرض لمفهومه ينبغي الإشارة أولاً إلى الموضوع أو المناسبة التي وُجِدَ فيها هذا التعبير (مقتضى الحال) ومنها تُدرَك أهميته.

يصادف القارئ هذا التعبير عند قراءته لتعريف بلاغة الكلام لدى القزويني في قوله: البلاغة في الكلام مطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته (1932هـ: 33)

كما نلمح هذا التعبير أيضاً في التعريف بعلم المعاني، فيقال: هو علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال (السبكي، بدون: 115)، ولستُ بصدد التعريف بعلم البلاغة بصفة عامة ولا بعلم المعاني بصفة خاصة -هنا- فقد اكتظت المؤلفات البلاغية بذلك، ولكن هدف هذا العمل: هو توضيح هذا المفهوم من خلال وضع النقاط على الحروف، أو بالأحرى إضاءة بعض الزوايا التي تحتاج إلى إضاءة في هذا المفهوم، مع ذكر بعض الأمثلة والشواهد القرآنية المدعمة لذلك.

- معنى مقتضى الحال ومفهومه لدى الدارسين:

مقتضى الحال هو الاعتبار المعين الذي يستدعي مجيء الكلام على صفة مخصوصة مناسبة للحال (السبكي، بدون: 123)، كذكر التأكيد وحذفه، ولا شك أنَّ هذا المقتضى يتغير بتغيير المناسبة أو المقام، فاعتبار الكلام اللائق بمقام ما، يختلف عن الاعتبار اللائق بآخر. (المغربي، 2003: 126) والحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وتلك الخصوصية هي مقتضى الحال. (طبانة، 1988م: 48)

ونحو ذلك قول الشاعر:

وَأَنَا لِمَا قَالْتَهُ أَنْصِتُ وَاجِمًا فِي حَيْرَتِي أَمْضِي، وَلَا أَتَكَلَّمُ (الخرم، 2009: 89)

فالفعل (أمضي) اختفى بعده (الحال) المؤكدة للفعل؛ لأنَّ الشاعر هنا يعلم أنَّ المخاطب يعلم بالعنصر المحذوف، من خلال حال السياق، لذلك حذفت الحال والتقدير: (أمضي صامتاً).

بينما في قوله:

قَدْ مَضَى هَاتِفًا بِوَحْدَةِ شَعْبٍ كَانَ يَبْغِي لَهُ الدَّخِيلُ اقْتِسَامًا. (الخرم، 2009: 12)



لم تُحذف (الحال المؤكدة)، لأنَّ المخاطب لم يعلم بهذا الخبر، ولم يكن السياق دالاً إذا حذَف، لذلك أراد الشاعر أن يوضح الصورة للمخاطب بذكر الحال المؤكدة.

وقد يتوهم السامع أنَّ الحال شيء متعلق بورود الكلام على خصوصية معينة في زمن معين، أنَّ المقام هو المكان الذي قيل فيه، ولكن الحقيقة غير ذلك إذ إنَّ الحال والمقام شيء واحد (المغربي، 2003: 126)، والاختلاف يكون في الاستعمال.

فالمقام يستعمل كثيراً مضافاً للمقتضى، فيقال: حال الإنكار -مثلاً- فالإضافة بيانية (المغربي، 2003: 126).

ويشرح مؤلف معجم البلاغة العربية ذلك قائلاً: والحال هو الأمر الداعي للمتكم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي به أصل المراد خصوصية ما، وتلك الخصوصية هي مقتضى الحال (طبانة، 1988م: 48)، أي: يؤدّي الكلام بسمات معينة مناسبة للمقام أو الحال الذي يلقي فيه ذلك الكلام.

ولا شك أنَّ مقتضى الحال يتفاوت بتفاوت المقامات والأحوال، فقد يقتضى الأمر إلى تنكير المسند، أو تقديمه على المسند إليه، وقد يدعو الحال إلى تعريفه، أو حذفه، لدلالة ما، لذلك فقد يلجأ المتكلم إلى حذف بعض العناصر في كلامه مراعاةً لأحوال أو ظروف السامعين، ومستوى ثقافتهم، وإلا أخطأ الهدف وضلَّ الطريق، لذا اعتُبر القرآن الكريم هو أعلى درجات الكلام بلاغةً، وأكثرها مطابقة للأحوال، وكيف لا يكون كذلك وهو من لدن عليم خبير بدقائق الأمور ومقتضياتها.

فالتعبير المطابق لمقتضى الحال لا بدَّ وأن يشمل على خصائص في الصياغة وأوضاع في التراكيب تدلُّ دلالة واضحة على معانٍ يكون بها الكلام تاماً وأفياً بالغرض، مطابقاً لمتطلبات الموقف الذي سيق من أجله. (عباس، 1985: 73-74)

المبحث الأول: حال السياق في شعر حسان بن ثابت الأنصاري:

لعل مما جاء به شعر حسان بن ثابت - رضي الله عنه - مراعيًا حال السياق قوله من الوافر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

هَجَوْتُ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا آمين الله شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ (الأنصاري، 2008: 16)

فالفعل: (هجوت) متعد، مبني للمعلوم، أي: يحتاج إلى مفعول به، ولم يُذكر، لكنه يُفهم من سياق الأبيات قبله، فالأبيات السابقة بدأت بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ لأنَّ الشاعر -هنا- يمدحه؛ لذلك



راعى حال السياق، وحذفه تعظيماً لشأنه، كذلك راعى الشاعر السياق بذكر الضمير في الفعل (هجوت) بدلاً من التصريح بالاسم والتقدير: هجوت محمداً يا أبا سفيان.

وقوله أيضاً من الطويل في مدح المصطفى:

فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالٍ يُرَدِّدُهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدٍ (الأنصاري، 2008: 58)
فالضمير في (فغادرها، يرددها) ليس له عائد إلا إذا رجعت إلى الأبيات السابقة لإيجاد المعنى وفهمه.
هنا يصف الشاعر النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يغادر (أمّ معبد) ثم يرددها، أي: يعود إليها من جديد، ليحلب الشاة مرة أخرى.

ومثل هذا جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ" [الرحمن: 26] فالضمير في قوله تعالى: (عليها) ليس له عائد سابق يوضحه، لكنه يفهم من سياق الآيات قبله (عباس، 1985: 130).

وقال حسان أيضاً من الوافر:

...فَقُلْتُ: لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ (الأنصاري، 2008: 15)
هنا يهجو الشاعر قريشاً فقال لهم: قلت لكم: قوموا صدقوا محمداً، فقلتم لا نقوم بصدقه ولا نشاء ذلك، فحذف الجار والمجرور (بصدقه) وكذلك المفعول به (ذلك) مراعاة للسياق.
فهنا لم يجد السامع، أو القارئ صعوبة في تحديد المقصود لفهمه من السياق السابق.
وقوله من الطويل:

تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا، أَنْتَ أَعْلَى وَأَمَجْدُ (الأنصاري، 2008: 55)
هنا الشاعر راعى حال السياق بحذفه الجار والمجرور من أفعل التفضيل، (أعلى، وأمجد)؛ لأنه قال في الشطر الأول من البيت: تعاليت عن قول الناس، وهذا ساعد في إيجاد المعنى المراد، والتقدير هو: أنت أعلى ممن دعا سواك، وأمجد منهم.

وقوله أيضاً من الوافر:

غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمْ حِرَاءً بَدَتْ أَرْكَائُهُ جِنْحَ الْغُرُوبِ (الأنصاري، 2008: 20)
هذا بيت من قصيدة يصف فيها الشاعر حال المؤمنين، وكذلك المشركين، في غزوة بدر الكبرى، فقال في وصف المشركين: جمعهم حراء، أي: مثل جبل حراء، حجماً وكثرة وقوة.



والشاهد من البيت: تنكير لفظة (حراء)، فتتكرر الألفاظ قد يكون دالاً على النوعية، وقد لا يكون (الزمخشري، 1407هـ: 133)، أي: قد يقتضي الحال أن يكون التنكير موحياً بغير ذلك، مثلما في البيت السابق..، فحالته يوحي أن المراد من التنكير هنا التقليل لأنه تشبيهه لجموع المشركين.

فمهما قلَّ (حراء) هو أعز وأعظم على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من كل ما ذكر. وورد مثل هذا الموضع في القرآن الكريم كثيراً، نذكر منه قوله تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [التوبة: 72]

فالحال في الآية الكريمة يوحي أن المراد من تنكير (رضوان) هو التقليل، بمعنى: أي رضوان، مهما قل هو أعز على المؤمنين من كل شيء (الزمخشري، 1407هـ: 165).

وقال حسان من الوافر للوليد بن المغيرة:

متى تُنسبُ قريشٌ أو تُحصَلُ فما لك في أرومتها نصابُ (الأنصاري، 2008: 38)
لأن السياق في البيت تضمن حكماً غريباً، إذ المخاطب هو الوليد ابن المغيرة من قبيلة قريش، ومع ذلك قيل له: فما لك في أرومتها نصاب، أي: ليس لك في أصل قريش نصيب، فكيف يكون ذلك؟! هذا هو السؤال المقدر الذي يتبادر إلى ذهن السامع مباشرة، فما كان من السياق الشعري إلا أن راعى هذا الاعتبار وذلك الإنكار، فجاء بعده البيت الذي يجيب على ذلك قوله من الوافر:
سألت هذيل رسول الله فاحشةً ضللت هذيل بما جاءت ولم تُصب (الأنصاري، 2008: 39)
أي: يا الوليد ضللت هذيل التي اتبعتها ولم تصب.

ومثل هذا قوله تعالى: "قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ" [هود: 46] ثم جاءت الإجابة بعد الإنكار "إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"

والخطاب بكل أنواعه: القرآني المنزل، والنبوي الشريف، وكذلك الشعري والنثري، قد يساق مساق الاستفهام لمعنى ما، أي أن له معنى عميق - فائض المعنى - يحتاج إلى تأمل فتأويل ليكون ظاهراً. ونحو ذلك قول حسان من الطويل:

ألم تر أن العذر واللؤم والخنا مسكناً بين المعين إلى عرد (الأنصاري، 2008: 58)



وقوله أيضاً من الطويل:

وهل يَسْتَوِي ضَلَالٌ قوم تسفوها عَمَى، وهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بُمَهْتَدٍ (الأنصاري، 2008: 59)

وكذلك قوله من الطويل:

وهل عَدَلْتُ يوماً رَزِيَّةً هَالِكٌ رَزِيَّةً يوم مات فيه محمد (الأنصاري، 2008: 62)

وأيضاً قوله من الكامل:

أُقيمُ بعدك بالمدينة بينهم؟ يا لَيْتَنِي صُبَّخْتُ سَمَّ الْأَسْوَدِ (الأنصاري، 2008: 65)
ففي كل بيت من الأبيات الأربعة السابقة أسلوب استفهام، لكل واحد يحمل معنى عميقاً غير الآخر، ففي البيت الأول استفهام لا يحتاج إلى جواب؛ لأنه يرمي إلى حمل المخاطب على الإقرار بأمر يعرفه، وفي البيت الثاني والثالث استفهام مفاده النفي، والبيت الرابع: الشاعر متعجب، يندب، كيف يقيم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا نجده كثيراً في النص القرآني والنبوي، والشعر.

المبحث الثاني: حال المخاطب في شعر حسان بن ثابت:

والمقصود -هنا- مراعاة حال المخاطب، في أي زمان ومكان، ومن حيث عدم علمه بالخبر وخلو ذهنه منه، أو إعلامه أنَّ المتكلم لديه بما يخفيه عنه، أو مخاطبته بالطريق التي تليق به إن كان مُنْكَرًا للخبر أو متردداً في صدقه. (شيخ أمين، 1995م: 56)
وهنا لا بدَّ أنْ نعرِّج -قليلاً- على أضرب الخبر.

من المعروف أنَّ أضرب الخبر ثلاثة (عتيق، 2009م: 51-53):

- 1- الابتدائي: وهو الخبر الموجَّه لمخاطب خالي الذهن، فإذا كان ذلك فعلى المتكلم أن يوجه الكلام إليه خالياً من كل مؤكد متناسباً مع خلو ذهنه من الخبر.
 - 2- الطلبي: وهو الخبر الموجَّه لمخاطب شاك أو متردد، فهنا يستحسن تأكيد الكلام له بمؤكِّد واحد؛ لإزالة تردده وشكه.
 - 3- الإنكاري: وهو الخبر الموجَّه لمخاطب منكر أو مكذِّب، فهنا لا بدَّ من تأكيد الكلام له بأكثر من مؤكد، بحسب قوة الإنكار والتكذيب.
- وبهذا نعلم أنَّ أضرب الخبر ثلاثة، لكل منها حالة معينة، تستوجب قدراً معيناً من التأكيد أو عدمه.



ولتوضيح ذلك نضرب هذا المثال: لو فرضنا أنك تريد إخبار أحد زملائك عن الاختبارات النهائية، فتقول له في الأحوال العادية: (أعلنت الكلية عن الجدول النهائي للاختبارات)، فإن رأيت منه تردداً أو شكاً، بسبب خبر آخر وصله أو غير ذلك، فمن البلاغة أن تنتقل معه إلى النوع الثاني، وهو الطلبي، فتقول: (إن الكلية أعلنت عن الجدول النهائي)، فتؤكد له الكلام بـ(إن)، فإن وجدت منه تكديباً لكلامك بأن قال لك: معلوماتك غير صحيحة، وأنا أعلم أنك واهم فيما تقول، فهنا لا بد من النوع الثالث: الإنكاري، فتقول: (إن الكلية قد أعلنت عن الجدول النهائي للاختبارات) فتؤكد له بـ(إن، وقد)، فإن زاد في الإنكار، زدت معه في المؤكّدات فيمكن أن تقول له: (والله لقد أعلنت الكلية عن الاختبار)، فتؤكد له بـ(إن، وقد، والقسم)، وهذا التنوع في الخبر بحسب المخاطب - واضح في أسلوب حسان بن ثابت في شعره.

ويأتي السؤال هنا، هل يختلف المعنى العميق باختلاف أضراب الخبر السابقة.

الجواب: نعم، وسنوضح ذلك من خلال تحليلنا لبعض أبيات حسان بن ثابت

يقول حسان بن ثابت من الكامل:

نَجَى حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرِ رَكُضُهُ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ (الأنصاري، 2008: 48)

هنا يتحدث الشاعر عن فرار حكيم بن حزام، في غزوة بدر، فقال: كان حكيم هارباً من الأبطال كما يفر ولد الفرس من الخيول الشهيرة.

فكأن فراره لم يكن في خلد السامعين وليس لديهم علم به، لذا جاء الخطاب في أبسط تركيب وأسهله، وهذا يسمى "قائدة الخبر"، وكل ما جاء كذلك فهو من هذا الباب ما دام المخاطب ليس لديه علم مسبق عن الخبر

ولعل المعنى في هذا الضرب يكون أعمق من المعنى في الضربين الآخرين؛ لأن المتكلم هنا لا يواجه ضغط من قبل المخاطب.

ومن هذا كثير في شعر حسان، كقوله من البسيط:

وَيَوْمَ بَدْرِ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فَيَرْفَعُ النَّصْرَ مِيكَالٌ وَجَبْرِيلُ (الأنصاري، 2008: 220)

استطاع حسان بفطرته الشاعرة أن يصور مشهد اللقاء بين المسلمين والكفار في بيت واحد، كما وانتته قريحته ليصور نزول المدد من السماء، بل إن الأمر تجاوز ذلك ليذكر بعضاً من الملائكة الذين نزلوا في مواجهة الكفار مع المسلمين، مثل ميكائيل وجبريل.



جاء الخطاب بسيطاً خالياً من التوكيدات؛ ولعل السبب عدم علم المخاطب بالخبر. وقد ورد هذا الموضع في القرآن الكريم كثيراً، نذكر منه قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس:25]، فهذا الدعوة الحميمة من المولى عز وجل، لم تكن في خلد السامعين، وليس لديهم علم بها، لذا جاء الخطاب أبسط وأسهل (الزمخشري، 1407هـ: 34) (الصوفي، 1419هـ: 463).

والحالة الثانية التي يمكن أن يكون عليها المخاطب وينبغي أن يكون الكلام مخاطباً لها، هي علمه بذلك الأمر، ورغبة المتكلم في إخباره أنه يعلم بالموضوع كأن يقول شخص لآخر: رأيته تتصت إلى قراءة القرآن.

ومن ذلك قوله تعالى: {...مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا} [مريم:28]، فالمخاطبة أكثر الناس بأبيها وأُمها، فقد كانا من بيت يُعلم شرفه ومكانته في القوم. (الدمشقي، 1999م: 201) وهذه الحالة نجدها في شعر حسان بن ثابت، نذكر منها قوله من الكامل في هجاء صفوان بن أمية: مَنْ مَبْلُغَ صَفْوَانَ أَنَّ عَجُوزَهُ أُمَّةً لِحَارَةٍ مَعْمَرِ بْنِ حَبِيبٍ (الأنصاري، 2008: 36) فصافون - بكل تأكيد - يعلم الخبر قبل مخاطبته، لذلك جاء الخطاب خالياً من التوكيدات. والسؤال الذي يبادر ذهننا - هنا - هل هناك معنى عميق وراء هذا الخطاب طالما المخاطب يعلمه؟ والإجابة: نعم، هو هجاء المتكلم وذمه، فالتقليل من شأنه.

وقوله أيضاً من البسيط:

فَيِنَّا الرُّسُولُ وَفِيْنَا الْحَقُّ نَتَّبَعُهُ حَتَّى الْمَمَاتِ، وَنَصِرُ غَيْرَ مَحْدُودٍ (الأنصاري، 2008: 56) حملت الأبيات في أعطافها مجموعة من الصور التي ساعدت حسان في تقوية المشاهد التي رسمها من أجل تقوية عزيمة المسلمين، وجاء البيت خالياً من أي توكيد رغم معرفة المسلمين بالخبر؛ لأنهم يقاتلون من أجل الحق ورسولهم، فهذا الخطاب يحمل معنى عميقاً، وهو - كما ذكرنا - تشجيع المسلمين لتقوية عزميتهم.

وقد تقتضي حال المخاطب أن يؤكد بأحد المؤكيدات، كأن يكون ظاناً في الأمر أو متردداً.

كقول حسان لأبي سفيان [الوافر]:

...أَنْ سَيُوفِنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا، وَعَبَدَ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ (الأنصاري، 2008: 15).



لا شك أن أبا سفيان كان شاكاً في أن العبيد صاروا سادة، والسادة صاروا عبيداً، هكذا نزل المترفون، وارتفع الضعفاء، لذلك اقتضت حال المخاطب تأكيداً ب(أن)، وهذا حالهم دائماً شاكون مترددون.

وقوله أيضاً من الطويل:

لَقَدْ شَقِيتُ كَعْبٌ جَمِيعاً وَعَامراً بِأَسْيَافِنَا يَوْمَ التَّقِينَا عَلَى بَدْرِ (الأنصاري، 2008: 116)
صدر حسان بيته بخبر مؤكد ب (لقد) و(جميعاً) حتى ينفي الشك عن أي نفس تتلقى هذا الخبر.
ولعل مثال هذه قوله تعالى: {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: 7]، فالمخاطب في الآية الكريمة هو الرجل المطلق الذي ليس لديه سعة من المال، والذي تطالبه العدالة الشرعية بالإففاق على زوجه الحاضنة لابنه، والمخاطب قد يكون لديه شك في أن تعوّض له هذه النفقة من الله عز وجل، لذا اقتضى حال الخطاب أن يثبت القرآن الكريم ذلك ويؤكد بأحد المؤكدات (السين). (العمادي، بدون: 263)
أمّا عند مخاطبة المنكر للأمر؛ فلا بدّ من معرفة مدى قوة الإنكار حتى يأتي الخطاب مقروناً بمؤكدات تناسب ذلك، وأمثلة ذلك كثيرة في شعر حسان بن ثابت.

حيث يقول [الطويل]:

أَبَا لَهَبٍ! أُبْلَغُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَعْلُو بِمَا أَدَّى، وَإِنْ كُنْتَ رَاغِمًا (الأنصاري، 2008: 268)
فالبيت ينقل لنا حال أبي لهب وعلمه بأنّ محمداً - صلى الله عليه وسلم - سيصل إلى العلا بما أَدَّى الرسالة، وإن كنت راغماً، أي: منكرًا وغير راضٍ، فاقتضى إنكار أبي لهب اقتران الكلام بتوكيدين، وهما: (إنّ، و السين).

وقد تقتضى حال المخاطب مزيداً من التوكيدات إذا زاد في الإنكار، كقول حسان :

لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرِ غَدَاةَ الْأُسْرِ وَالْقَتْلِ الشَّدِيدِ
بَأْنَا حَيْنَ تَشْتَجِرِ الْعَوَالِي حُمَاةَ الْحَرْبِ يَوْمَ أَبِي وَلِيدٍ
لَقَدْ لَاقَيْتُمْ ذُلًّا وَقِتْلًا جَهِيْزًا نَافِذًا تَحْتَ الْوَلِيدِ

كُلُّ الْقَوْمِ قَدْ وَلُوا جَمِيعًا، وَلَمْ يَلَوْا عَلَى الْحُسْبِ التَّلِيدِ (الأنصاري، 2008: 44)

استطاع حسان بألمعته الشاعرة وحسه المرهف -على الرغم من أنه لم يكن محارباً بالسيف - أن يلبس قريشاً ثوب الذلة والمهانة من خلال سوقه مجموعة من الحقائق التي حدثت يوم بدر.



فهنا استعمل حسان أكثر من توكيد (لقد- أن - لقد -جميعاً) مع أن كلامه حقيقة، إلا أنه رأى من قریش أشد الإنكار فراعى حالها في الخطاب.

وقد يصل المتكلم للحلف، كقول الشاعر من الكامل:

والله ربي لا نفارق ماجدا عفّ الخليفة، ماجد الأجداد

متكرماً يدعو إلى ربّ العلى بذل النصيحة رافع الأعماد

والله ربي لا نفارق أمره ما كان عيش يرتجى لمعاد (الأنصاري، 2008: 56-57)

كان من الممكن أن يقول: لا نفارق ماجداً، ولا نفارق أمره، بدلاً من: والله لا نفارق...

لكن هناك إنكار شديد من قبل قریش، فجاءت مخاطبتهم بمدح النبي بالحلف.

وهذا مقاس على قوله تعالى: {فَوَرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات: 23]

يبدو أن المخاطب هنا كثير الشك والإنكار؛ لذلك يقسم الله عز وجل بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث، كائن لا محالة، وهو حق لا مزية فيه، فلا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. (الدمشقي، 1999م: 634)

وقد يحذف المتكلم، أو الكاتب، حرفاً أو كلمة أو جملة أو أكثر من ذلك، مراعاة لحال المخاطب، لأثّه يعلم بالخبر، فحذفه حين إذا يكون أعم وأشمل، وقد يستدعي الحال ذكر هذه العناصر؛ مراعاةً للمخاطب؛ لأثّه لا يعلم بالخبر.

فمثلاً: إذا دخل زيدٌ إلى خالد، وقال له: (رَكِبَ وَرَحَلَ)، وهو يقصد عمرو، فحذف الفاعل -هنا- الذي هو (عمرو)؛ لأنّ المخاطب (خالد) يدري بذلك من قبل، ولا تصلح الجملة (رَكِبَ وَرَحَلَ) بالحذف، والمخاطب (خالد) لا يعلم بالخبر؛ لأنّ الأمر قد يلتبس، وهذا ما نراه كثيراً في حسان بن ثابت، كقوله من الطويل:

أبا لهب! أبلغ بأنّ محمداً سيعلو بما أدّى، وإن كنت راغماً (الأنصاري، 2008: 268)

أراد: بما أدى الرسالة، فهنا الشاعر راعى حال المخاطب، وهو العلم بالمحذوف؛ لأنّ سبب عناد أبي لهب وقریش معلوم، وهو تأديته رسالته صلى الله عليه وسلم، إذن هذا البيت من قصيدة قيلت بمناسبة هذا العناد، فحذف المتكلم أو الكاتب العنصر وهو بأريحية تامة.

لذلك فإنّ مناسبة القصيدة تؤدي دوراً مهماً في معرفة العناصر المحذوفة، فإذا علم المخاطب المناسبة لكتابة القصيدة، فإنّ هذا لا يكلفه كثيراً لمعرفة المحذوف، وبهذا يُحذف العنصر.



وقوله أيضاً من الطويل:

نَصَرْنَا وَأَوْيَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى أَنْفٍ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاحِمٍ (الأنصاري، 2008: 248)
هذا البيت من قصيدة قالها يوم الوفاة، أي: وفد بني تميم، وكان خطيبهم عطار بن حاجب، فقال بحذف المفعول نَصَرْنَا، أي: نصرنا محمداً وأويناً، لأنهم يعرفون محمداً جيداً، فراعى حالهم، وعند التأمل جيداً نجد معنى عميقاً لم يخرج من قبل المتكلم وهو حذف الفاعل الأصلي وبناء الجملة على النحو الذي يريده المتكلم، والتقدير: نصر الله محمد بسببنا، فكأن حسان أراد بهذا الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك المخاطب يعلم أن النصر من عند الله.

المبحث الثالث: أثر حال المتكلم في المعنى:

عرفنا فيما سبق أن المتكلم ينظر إلى حال مخاطبه ويصوغ عباراته على أساس ما يقتضيه حاله من التوكيد وعدمه، أو الحذف والذكر، أو التعريف والتكثير، أو التقديم والتأخير، ولا يعني هذا أن البلاغيين قد أغفلوا حال المتكلم نفسه وأنهم اقتصروا على البحث في حذف الخبر أو توكيده أو ذكره... ودواعي ذلك على حال المخاطب فقط، فقد يكون الداعي إلى حذف الخبر هو حال المتكلم نفسه، ومدى انفعاله بالحكم الذي يقرره في كلامه.

وللتوضيح أكثر، قول أبي سفيان بن حرب [الطويل]:

وَسَلَّى الَّذِي قَدْ كَانَ فِي النَّفْسِ لِأَنْتِي قَتَلْتُ مِنَ النَّجَارِ كُلَّ نَجِيبٍ
وَمِنْ هَاشِمٍ قَرَمًا نَجِيبًا، وَمُصْعَبًا، وَكَانَ لَدَى الْهَيْجَاءِ غَيْرَ هَيُوبٍ (الأنصاري، 2008: 44)
ومن هاشم... : يقصد حمزة، رغم معرفة أبي سفيان حمزة، مثل معرفته بمصعب بن عمير الذي ذكر في البيت، وهذا دليلاً على مشاعره الحاقدة تجاه حمزة رضي الله عنه.

ويقول حسان بن ثابت بعد ما رد عليه: أتعجب أن أقصدت حمزة منهم...

ومثل هذا قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُم إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" [سبأ: 7]، فجاءت لفظة (رجل) نكرة رغم معرفة المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم - والتكرار لم يقصد به القرآن الكريم قطعاً الحط من قدره، وإنما نقل مشاعرهم الحاقدة تجاه خير الأنام عليه أفضل الصلاة والتسليم. (الأندلسي، 1420هـ: 8)



وكذلك قول حسان من الوافر:

أَتَهْجُوهُ، وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ، فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ (الأنصاري، 2008: 16)
يهجو الشاعر أبا سفيان بن الحارث، فقال له: أتهجو رسول الله وهو ليس بمستواك؟ فالشر الذي يخرج منك ومن أبيك، ما هو إلا خير لمحمد وأبيه.
فسأله: أتهجوه؟ وهو يعلم أن أبا سفيان يعلم ذلك؛ لأنه هو من قام بالهجاء.
كان من الممكن أن يقال: أنت هجوت محمد ولست له بكفاء، ولكن أتى بسؤال لا يريد إجابة مراعاة للمتكلم.

فالببيت ينقل لنا إحساس المتكلم بالغضب، بدليل رده بالتوكيد في قوله:
فإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ.
ويقاس على ذلك قوله تعالى: "رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى" [آل عمران: 36]، فالآية تنقل لنا إحساس امرأة عمران بالحزن والحسرة، بدليل ما جاء بعدها مباشرة، قوله تعالى: "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ" (المظهري، 1412هـ)
وقال حسان [البسيط]:

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا، فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
قَلْبٍ، وَعَقْلٌ غَيْرُ ذِي رَدَلٍ، وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورُ (الأنصاري، 2008: 103)
قد يتوهم الناظر لهذين البيتين أن حال المتكلم مفتخر، ومُظهر لرفعة شأنه، لكن عند التأمل في البيتين، نجد أن المقصود من مدح الشاعر النفس، هو مصلحة دينية للمسلمين أجمع، لأن قريش لا تعترف بأخطائها، ولا يريدون من يتكلم عنها، فكان الشاعر يقول: يا قريش حتى لو فقد بصري، فإن نور قلبي يزداد أكثر، ولساني أقوى من السيف على الأعداء؛ وتلك من بركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم - لي، أن يؤيدني الله بجبريل عليه السلام، روح القدس: (اهجهم، وروح القدس معك) إذن نستطع القول: أن حال المتكلم هو الإحساس بالمسؤولية، والخوف من عدم تلبية ما قاله له - النبي صلى الله عليه وسلم - (اهجهم)، وعدم طاعته.
وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص، كقول النبي صلى الله عليه وسلم -: "أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ" (البخاري، 1422هـ: 1015) (النيسابوري، 1334هـ: 1400)



فحاله صلى الله عليه وسلم -هنا- أمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر، مشير إلى مصلحة دينية، دافع عن نفسه شراً، لا حاله مفتخراً، فذكر محاسنه-صلى الله عليه وسلم- ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد ما يذكره (النووي، 1994م: 351).

وقول يوسف - عليه السلام - : "سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" [القصص]، قال ابن الجوزي عن قصة يوسف -عليه السلام- "فإن قيل كيف مدح نفسه بهذا القول، ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع؟ فالجواب: أنه لما خلا مدحه لنفسه منبغي وتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق يُقيّمه، وعدل يحييه، وجوز يبطله، كان ذلك جميلاً جائزاً" (المقدسي، 1996م: 448)، ونظائر هذا كثيرة لا تتحصر، وكلها محمولة على ما ذكرنا.

وقد يستعمل المتكلم الحلف بسبب انفعاله وتأثره بشيء ما، كقول حسان يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنهما [الكامل]:

والله لا يوفونَ بَعْدَ إِمَامِهِمْ أبدأً ولو أُمِنُوا بِحِلْسِ حِمَارٍ (الأنصاري، 2008: 113)
هنا يتحدث الشاعر عن السفهاء المنافقين الذين غدروا بعثمان فقتلوه، فقال مقسماً بالله: لا يؤتمنون على ما يوضع تحت البردعة على جلد الحمار.

كان من الممكن أن يقول: لا يوفون من غير حلف، لأن المنافقين لا يوفون ولا يؤتمنون حقاً، لكن هذا انفعال من المتكلم، فحاله غاضب نادب.

وأيضاً قوله من الطويل عند رثاء حمزة بن عبدالمطلب:

فَوَ اللَّهِ لَا أُنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا، [وهذا البُكَاءُ] فِي مَحْضَرِي وَمَسِيرَتِي (الأنصاري، 2008: 115)
بدأ الشاعر البيت بالحلف، وهذا انفعال منه فقط، والكلام - في الأصل - لا يحتاج لحلف لأن الفقيه العزيز لا ينسى.

وقد يتقدم أو يتأخر العنصر عند الشاعر لتفاعله مع الحدث، كقوله مادحاً النبي صلى الله عليه وسلم:
وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي، وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءَ (الأنصاري، 2008: 17)

أي: لم تر عيني أحسن من محمد صلى الله عليه وسلم، ولم تلد النساء أجمل من محمد صلى الله عليه وسلم.



هنا الشاعر قدّم المفعول به، (أحسن)، وكذلك (أجمل)، لتفاعله مع خطابه في مدحه صلى الله عليه وسلم.

فحال المتكلم -هنا- متيم بحب النبي صلى الله عليه وسلم، لذا قدم الأحسن والأجمل. ونجد هذا في قول أنس - رضى الله عنه - : "ما أمسى عن آل - محمد صلى الله عليه وسلم - صاعُ بُرٍّ ولا صاعُ حَبٍّ وإنَّ عندهُ لَتِسْعَ نِسوةٍ" قدّم أنس -رضي الله عنه- خبر (كان) أو إحدى أخواتها لغرض التعجب، فحالُه متعجب من قلة الزاد عند آل محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو نبي الله عز وجل، ولو دعا لكان أغنى الناس، فهو لا يملك صاع بر ولا صاع حب. (القسطلاني، 1323هـ: 296)

وقوله أيضاً من البسيط:

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فَيَرْفَعُ النَّصْرَ مِيكَالٌ وَجِبْرِيلُ (الأنصاري، 2008: 220)
هذا البيت قيل يوم بدر، انفعِل فيه الشاعر بلسانه كأنفعال المقاتلين بالسيف، فقدم المفعول به (النصر) على الفاعل (ميكال)، والمعطوف (وجبريل)، لرفع معنويات المقاتلين، فحال المتكلم تائر بلسانه

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبغفوه تُغْفَرُ الزلات، وبفضله تربو الحسنات على السيئات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة بكل صدق ووفاء حق الأداء.

وبعد...

- فمن خلال البحث والدراسة التحليلية للموضوع استطعت أن أتوصل إلى نتائج الآتية:
- 1- النصوص الشعرية تحوي أحسن الشواهد -بعد القرآن الكريم والحديث النبوي- لبيان مطابقة الكلام لمقتضى الحال.
 - 2- من سمات شعر حسان أنه يصدر المقطوعة بحكم يُشعر الكفار بالامتهان والإذلال، ثم يمعن في تعزيد كلامه بالدليل القاطع من خلال سرد بعض أحداث الغزوة.
 - 3- شعر حسان بن ثابت تنوعت أغراضه، وتعددت مواضعه، وجاء، بحكم ومواضع، وخاصة فيما يتعلق بمدح النبي -صلى الله عليه وسلم- والدفاع عنه.
 - 4- يتنوع الغرض الشعري بتنوع حال المخاطب.



- 5- مراعاة عناصر الخطاب يساعد على إيجاد المعنى العميق في النص.
- 6- بعض كلمات شعر حسان بن ثابت نجدها في القرآن الكريم، بنفس اللفظ والمعنى، وهذا يؤكد أن لغة القرآن تخدم لغة الشعر، وخاصة شعر صدر الإسلام.
- 7- المواضع التي جاءت مراعية حال الخطاب في شعر حسان كثيرة جدا تكاد لا تتحصر.

التوصيات

إنَّ شعر حسان بن ثابت يُعدُّ قِمةً في التعبير اللغوي على شتى مستوياته من نحو وصرف وبلاغة ودلالة، فهو لذلك حقيقٌ ألا يوقَّف به عند حدود الدراسة الأدبية والنقدية، بل يجب أن يُتناوَلَ بدراسات لغوية عديدة، من شأنها أن تُبرز سماته المميّزة، وتوفيه حقه من البحث اللغوي الذي يليق به، وتتيح لقارئه الفرصة لأن يفهمه فهماً تاماً غير منقوص.



المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

-القرآن الكريم.

- 1- الإفريقي، محمد ابن منظور، 1414هـ، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى.
- 2- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، 1420هـ، ت: صدقي محمد، البحر المحيط، دار الفكر.
- 3- الأنصاري، زيد بن ثابت، 2008م، ديوان زيد بن ثابت الأنصاري، دار المعرفة، الطبعة الثانية.
- 4- البخاري، محمد بن إسماعيل، 1422، صحيح البخاري، ت: محمد زهير، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى.
- 5- التونسي، محمد بن عاشور، 1984، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، الكعبة الأولى.
- 6- الحموي، أحمد بن محمد، 734هـ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية.
- 7- الخرم، علي عبد الشفيع، 2009، عشقي أكبر من لغتي (ديوان شعر)، مجلس الثقافة العام، الطبعة الأولى.
- 8- الدمشقي، إسماعيل بن كثير أبو الفداء، 1999، تفسير ابن كثير، ت: سامي سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية.
- 9- الرازي، محمد خاطر، 1995، مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الجديد.
- 10- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد، 1407، الكشاف، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة.
- 11- السبكي، بها الدين، (بدون ط)، شروح التلخيص (مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني)، دار الكتب العلمية.
- 12- شيخ أمين، بكري، 1995، البلاغة في ثوبها الجديد، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة.
- 13- الصوفي، أحمد أبو العباس، 1419، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الناشر: الدكتور: حسن عباس زكي، الطبعة الأولى.
- 14- طبانة، بدوي، 1988م، معجم البلاغة العربية، دار الرفاعي، الطبعة الثالثة.
- 15- عباس، حسن عباس، 1985، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان، الطبعة الأولى.
- 16- عتيق، عبد العزيز، 2009، علم المعاني، دار النهضة العربية للنشر، الطبعة الأولى.
- 17- العلوي، محمد بن طباطبا، 1900، عيار الشعر، دار الكتب العلمية.



- 18- العمادي، محمد أبو السعود، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث.
 - 19- القزويني، جلال الدين الخطيب، 1932، التلخيص في علوم البلاغة، المكتبة البخارية الكبرى، الطبعة الثانية.
 - 20- القزويني، أحمد بن فارس الرازي، 1368هـ، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى.
 - 21- القسطلاني، أحمد بن محمد، 1323هـ، إرشاد الساري في صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، الطبعة السابعة.
 - 22- محمد، حسين أبو موسى، 1980، خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية.
 - 23- المظهري، محمد ثناء الله، 1412هـ، تفسيره المظهري، ت: غلام نبي التونسي، الطبعة الأولى.
 - 24- المغربي، أحمد بن محمد بن يعقوب، 2033، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
 - 25- المقدسي، محمد بن مفلح، 1996، الآداب الشرعية، ت: شعيب الأرنؤوط، وهمر القيام، مؤسسة الرسالة.
 - 26- النووي، يحيى بن شرف، 1994، الأذكار النووية، ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر للطباعة.
 - 27- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، 1334هـ، صحيح مسلم، دار جيل بيروت، الطبعة الأولى.
 - 28- هيدغر، 2012، مارتين، الكينونة والزمان (ترجمة: فتحي المسكيني)، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- ثانياً: المقالات**
- 1- الأحمد، هبة عبد العز، 2010-03-26، تحليل الخطاب، مركز النور، العدد: 1، الصفحات: 1-5.
 - 2- الجباعي، جاد الكريم، 2018، تأملات في التأويل وفائض المعنى، مجلة مؤمنون بلا حدود، العدد 3.
 - 3- حمدان، محمد علي، 1978م، ابن جعفر وأثره في النقد، مجلة الطليعة الأدبية، المجلد: الرابع، العدد التاسع، الصفحات: 50-62.



4- عليمي، عبدالقادر، الخطاب الشعري ووجوه الانفتاح الدلالي (قراءة في شعرية الإضممار)، 31-01-2014، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، المجلد: 3، العدد: 1، الصفحات: 37-72.

الملحق

شرح الكلمات الصعبة:

الصفحة	المعنى	الكلمة
11	الشاة التي تُحلب	الحالب
11	جبل حراء	حَراء
12	أصلها	أرؤمَتها
12	اسم قبيلة	هُذيل
12	موضع بطريق حاج الشام	المَعين
12	المصيبة	الرَّزِيَّة
13	سُقَيْثُ	صُبِّحت
13	السم القاتل	السم الأسود
14	نجاة	نجاء
14	حكيم بن حزام	حكيم
14	نسبة للخيل (الأعوجيات)	بنات الأعوج
14	عون	مدد
14	ميكائيل	ميكال
16	غير راضٍ	الراغم
16	تتنازع وتتلاقى	تَشْتَجِر
16	الرماح	العوالي
16	يوم بدر	يوم أبي الوليد
16	سريع	جهيز



16	عرق في فصفحة العنق	الوريد
16	القديم	التلبد
16	لا يأتي ما لا يحل له	عَفَّ الخليفة
16	كثير العطاء	بَذَل
18	بني النجار، أنصار الله ورسوله	النَّجار
18	جهل وضلال	رَذَلَّ
19	ما يوضع تحت البردعة على جلد الحمار	حَلَسَ
19	حَلَي وترحالي	محضري ومسيرتي